التراث بين السلف والخلف

للأستاذ : عبدالله محمد الحقيل

الحديث عن التراث حديث متشعب الأطراف متنوع العناصر اذ هو موئل الأفكار والعقول وان احياء التراث العربي الاسلامي والعناية به لعمل جليل سيكون له ما بعده لا في حياة الأمة العربية وحدها بل للعالم الاسلامي والحياة الانسانية كلها اذا أتيح له من النجاح والاهتمام والعناية ما هو أهل له ·· ولقد لاحظنا اهتمام الغربيين ونشاطهم في احياء تراثهم والجهود التي يبذلونها في هذا المضمار وقد تجاوز ذلك الى اهتمامهم بتراث الأمم الأخرى ·· وللأسف فمازلنا مقصرين في ذات تراثنا واحيائه واخراجه وتحقيقه فتراثنا جزء من شخصيتنا وكياننا ·· وليس احياء التراث معناه الانصراف عن الأخذ بأسباب العلوم والآداب والثقافات الحديثة · فمازال الغربيون يولون الأدب اليوناني واللاتيني القديم كل اهتمام وتحقيق ···

اننا كثيرا ما نسمع عن تشكيل مجموعة من الباحثين لنشر وتحقيق بعض الكتب على مختلف المستويات الرسمية والشعبية سواء في الجامعة العربية أو معهد المخطوطات أو المجامع اللغوية والجامعات ودور النشر والمكتبات وتشكيل مجموعات من الباحثين وذلك لنشر وتحقيق بعض الكتب ونقرأ أن هناك كتبا كثيرة حققت وأعطيت للناشرين فتعثرت في طباعتها اذ ظهرت بعض

أجزائها وبقيت الأخرى نظرا لما لحق الناشر من خسارة مادية حالت دون الاخراج . ولقد سمعت من أحد المسئولين عن دور النشر قائلا ان كتب التراث تبقى مكدسة لدينا ولا يقبل الناس على قراءتها وشرائها باستثناء البعض من الجامعات والمتخصصين ٠٠ لقد شغف علماؤنا القدامى بالكتب وشرائها وجمعها حتى كانوا يرون خسارتهم في أموالهم أيسر عليهم من خسارتهم في كتبهم وكانوا يتنافسون في شراء المؤلفات العلمية من مؤلفيها قبيل الانتهاء من تاليفها وعلى سبيل المثال فقد سمع الحكم أمير الأندلس بكتاب الأغاني فارسل على الفور الى مؤلفه أبي الفرج الأصفهاني بألف دينار من الذهب ثمن نسخة واحدة منه فارسل اليه أبو الفرج بنسخة من الكتاب فقرىء كتابه في الأندلس قبل أن يعرف في موطن المؤلف العراق ٠ وروى عن الصاحب بن عباد أنه فضل أن يبقى بجانب كتبه ومكتبته على المنصب الكبير الذي عرض عليه في بلاط نوح بن منصور الساماني كما كان المأمون يعطي حنين بن اسحاق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربية كما أن محمد عبد الملك الزيات يعطي نساخ الكتب في مكتبه ألفي دينار وغير ذلك من الأمثلة كثير مما يتحدث عنه التاريخ باعجاب ٠٠ ان تراثنا ليفيض بذخائر المؤلفات التي تشع بالنور والضياء والمعرفة وان تجاهل ذلك وازدرائه لا يليق بنا ومن الخير أن نعمل على احيائه والاستفادة منه ليصبح زادا ثقافيا واعيا للشباب وليصير منطلقا واسعا يتعرف فيه أبناؤنا على ماضيهم وتراثهم وأعلامهم وعلمائهم وما تحمله أولئك الأعلام في تناول ومعالجة القضايا الفكرية والثقافية والتاريخية وكانوا يتحلون بأسمى الصفات وأنبل السجايا التي تتمثل في رجال العلم والبحث من أمانة ودقة واستقصاء ودأب واخلاص ووفاء وتجرد ومن يستعرض سير المؤرخين وأئمة اللغة والنحو ورحلاتهم الى مختلف البلدان ومناطق تجمع البادية وذلك بقصد التأكد من صحة وصواب الأساليب والمؤلفات المعجمية واخراجها على الوجه العلمي ٠ لقد اهتم المستشرقون بتراثنا وطبع ما حصلوا عليه من كتبنا والرجوع الى المظان المنقول عنها ويقول البحاثة محمد كرد علي « لولا عناية المستعربين باحياء آثارنا لما انتهت الينا تلك الدرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة وطبقات الحفاظ ومعجم البلدان ومعجم الأدباء ٠٠ ورأوا مصلحة للعلم والآداب أو للسياسة والاستعمار غرضا في احيائه قبل غيره » ٠

ويقول صاحب الرسالة الأديب المعروف المرحوم أحمد حسن الزيات في كتابه تاريخ الأدب العربي : « لقد كتب المستشرقون البحوث القيمة في تحقيق الألفاظ وتحرير الأصول وتصحيح الأخطاء وكشف المجهول عن الأسلوب العلمي الصحيح والمنهج المنطقي الحديث وأصدروا

المجلات ونشروا نفائس الكتب وعلقوا عليها الحواشي وذيلوها بالفهارس المختلفة للأسماء والأمكنة والموضوعات ويقول المؤرخ الانجليزي ملر في كتابه فلسفة التاريخ : « ان مدارس العرب في أسبانيا كانت هي مصادر العلوم وكان الطلاب الأوروبيون يهرعون اليها من كل قطر يتلقون فيها العلوم والرياضة وماوراء الطبيعة وكذلك أصبح جنوبي ايطاليا منذ احتله العرب واسطة لنقل الثقافة الى أوروبا ولقد ورد الى المدارس العربية مجموعة من الرهبان لدراسة علوم الرياضيات والفلك ثم عادوا الى قومهم ينشرون فيهم نور الشرق وثقافة العرب فرموهم بالسحر والكفر ... وهكذا تخرج على علماء الأندلس العديد من العلماء والمفكرين وأولعوا باللغة العربية وعدوها لغة الأدب العالي .

ولقد أوصى قومه الراهب روجر بتيون الانجليزي بتعلم اللغة العربية وقال : « ان الله يؤتي الحكمة من يشاء ولم يشأ أن يؤتيها اللاتين وانما اتاها اليهود والاغريق والعرب .

لقد اقبلت الأمم الأوربية القوية تتنافس في تعلم علوم العرب وارتياد أفكارهم وكشف آثارهم واحياء آدابهم وطبع كتبهم وابراز فنهم ...

ان قضية الاهتمام بتراثنا والعمل على احيائه قضية تتسع أبعادها كما تقول الأديبة الدكتورة بنت الشاطيء فهي تستوعب الماضي والحاضر والمستقبل كما ترحب مكانا فتتجاوز حدود وطننا العربي الى العالم الاسلامي الكبير ثم انها في جوهرها قضية وجود ومصير بما تكشف عن حقيقة ذاتنا وآماد طاقتنا وما تضيء لنا من معالم الطريق وآفاق الطموح ...

منذ بضعة أيام كنت أقرأ موضوعا في احدى المجلات العربية يتحدث فيه كاتبه عن الاهتمام فقط بمشكلات هذا العصر والقضايا التي نعيشها وأنه لا داعي للاهتمام بالتراث لأن جدواه قليلة ...

والواقع أن هذا الاتجاه دعوة لعزلنا عن تراثنا وماضينا وتلك لعمرى دعوة جائرة وأسلوب خطير واشاحة عن تلك الأمجاد وانفصام عن التاريخ وتنكر للموروثات الثقافية والفكرية والعلمية والروحية .. وليس معنى الاهتمام بالتراث أن ننشغل به ولا نلتفت الى ما سواه من حياتنا وما تموج به من معطيات فنحن نعيش الحاضر ونتفاعل معه ونشارك فيه ولكن ليس معنى ذلك أن ننسى ماضينا ولا نهتم بتراثنا وذخائرنا وما تركه أسلافنا من ثمار المعرفة ... والتي أصبحت ميراثا ثقافيا يجب أن نحافظ عليه ونرعاه كما تحافظ الأمم الأخرى على تراثها الفكري والحضاري ...

فلتتسع آفاقنا ولننظر لذلك نظرة واعية شاملة ولندرك الدور الحيوي الجليل الذي قام به أسلافنا في رسالتهم الحضارية حيث شهد التاريخ لهم بما أوجدوه من تحول تاريخي عظيم اتسع وامتد في مختلف أقطار الأرض ٠٠ ومن الواجب علينا ألا نترك تراثنا يعمل على احيائه نفر من المستشرقين اتخذ البعض منهم ذلك وسيلة للتجني على الاسلام والمسلمين ودس سمومهم فمناهجهم في البحث معروفة فكم أساءوا الى الاسلام وذلك هدفهم وسبيلهم واهتمامهم بالأقوال التافهة والأراء الواهية وقبولهم وترويجهم للأحاديث الموضوعة وغير ذلك مما هو معروف ٠

ان تراثنا الاسلامي يحفل بصفحات مشرقة ناصعة ولقد واجهت الأمة الاسلامية عبر العصور تحديات عنيفة وقد اشرأبت أعناق الحاسدين والطامعين وسعوا جاهدين الى اخماد جذوة الايمان بكل ما في جعبتهم من ألوان الأذى والكراهية والعنف واحراق الكثير من المآثر والذخائر والمعارف في بغداد والأندلس وغيرها بيد أن ذلك كله لم يطفىء اشعاع الثقافة الاسلامية في النفوس فبعد سقوط الأندلس ظل المسلمون يتسترون باسلامهم يصلون في الكنيسة ويقرأون سرا سورة « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ٠٠ » ويستظهرون في بيوتهم ويؤلفون كتبا مبسطة في الفقه والتوحيد والسيرة النبوية والقصص القرآنية رغم محاربة الكنيسة لهم ومع ذلك لم تتقوض الثقافة الأندلسية الاسلامية وبقيت أسماء العلماء والمفكرين الأندلسيين رغم حقد ومقاومة المتعصبين المسيحيين ومن يطالع التاريخ الأندلسي يدرك ذلك وكيف تقاسم الغزاة خزائن مكتبات العلماء المسلمين ٠

ومازال المكتبات الأوربية اليوم تمتلك رصيدا كبيرا من كتب التراث الاسلامي وفي النمسا تحتوي المكتبة القومية في فيينا على مجموعة من المخطوطات وفي برلين بألمانيا مجموعة من المخطوطات وكذا تقتني جامعة هامبورج وثائق من التراث معظمة مكتوب باللغة العربية وفي هولندا وبريطانيا وفرنسا مجموعات ثمينة وغيرها كثير مما تحويه من الذخائر النادرة والمخطوطات والكتب التي تركها أسلافنا وتسابق الأجانب على الاحتفاظ بها في خزائن مكتباتهم ومن الخير أن نكون أولى منهم وأجدر بالوفاء لتراثنا وما خلفه أسلافنا والوفاء من الصفات الأصيلة الكريمة ٠ كما قال شاعرنا العربي ٠

حلبنا الدهر أشطره ومرت بنا عقب الشدائد والرخاء
وجربنا وجرب أولونا فلا شيء أعز من الوفاء

المصادر

تاريخ الأدب العربي	أحمد حسن الزيات
دراسة في مصادر الأدب	دكتور أحمد مكي
تراثنا	بنت الشاطيء
كلمات متناثرة	عبد الله حمد الحقيل
العقد الفريد	ابن عبد ربه
خزانة الأدب	عبد القادر البغدادي